

الإرادةُ لِكَيْ نُؤْمِنَ

المحاضرة ٢: حُرِّيَّةُ الإرَادَةِ وَسِيَادَةُ اللَّهِ

أ.ر. سي. سرول

في المُحَاوَرَةِ الأولى، رَأَيْنَا أَنَّ الْمَعْرَكَةَ حَوْلَ حُرِّيَّةِ الإرَادَةِ تَدُورُ عَلَى جَبْهَتَيْنِ. تَتَعَلَّقُ الْجَبْهَةُ الأولى بِعِلَاقَةِ حُرِّيَّةِ الإرَادَةِ بِالْقُوَى الْحَارِجِيَّةِ، الَّتِي قَدْ تَوَثَّرُ فِي قَرَارَاتِنَا، أَوْ نُحْتَمِهَا، بِشَكْلِ أَوْ بِدَرَجَةٍ مَا. وَتَتَعَلَّقُ الْجَبْهَةُ الثَّانِيَّةُ بِحُرِّيَّتِنَا الْأَخْلَاقِيَّةِ وَعِلَاقَتِهَا بِالْحُطْيَةِ الْأَصْلِيَّةِ.

اِخْتَمَمْنَا الْمُحَاوَرَةَ السَّابِقَةَ بِالنَّظَرِ إِلَى الْمَشْهَدِ الْمُعَاوِرِ لِلْحَتْمِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ، مُمَثَّلًا فِي بِي. إف. سَكِينَر (B.F. Skinner). وَفِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ، نَتَذَكَّرُ لُودْفِيغَ فُويرْبَاخَ (Ludwig Feuerbach)، الَّذِي كَانَ لَهُ تَأْثِيرٌ فِي كَارْلُ مَارْكْسُ وَنَظَرِيَّاتِهِ الْحَتْمِيَّةِ. اِشْتَهَرَ فُويرْبَاخُ بِتَعْلِيْقِهِ الْقَائِلِ: "أَنْتَ نِتَاجُ مَا تَأْكُلُهُ". وَهَذَا يُدْكَرُنِي قَطْعًا بِقِصَّةِ الرَّجُلِ الَّذِي وَقَعَ تَحْتَ تَأْثِيرِ كِتَابَاتِ فُويرْبَاخَ، فَقَالَ: "حَسَنًا، إِنْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا، فَسَأَعَيِّرُ نِظَامِي الْعِدَائِيَّ". وَقَرَّرَ، فِي مُحَاوَلَةٍ مِنْهُ لِحُجْمِ ثَرَوَاتِ طَائِلَةٍ، أَلَّا يَتَنَاوَلَ سِوَى الْأَطْعِمَةِ الرَّاقِيَّةِ. فَابْتَدَأَ يَمَلَأُ بَطْنَهُ بِالْفَطَائِرِ وَالْكَعْكَ الْمَحْلَى، وَأَشْيَاءٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، لَكِنْ أُصِيبَ بِالْيَأْسِ لَمَّا اكْتَشَفَ أَنَّهُ بَدَلًا مِنْ أَنْ يُصْبِحَ ثَرِيًّا، أَصْبَحَ سَمِينًا. وَكَانَتْ هَذِهِ نَهَايَةَ نَظَرِيَّةِ فُويرْبَاخَ بِأَنَّ نِتَاجَ مَا نَأْكُلُهُ. لَكِنْ بِالطَّبِيعِ، كَانَ فُويرْبَاخَ يَقْصِدُ شَيْئًا أَعْمَقَ مِنْ ذَلِكَ، حَيْثُ قَالَ إِنَّنَا، إِلَى حَدِّ بَعِيدٍ، نِتَاجُ عَمَلِيَّاتِ بِيُوْكِيمِيَّائِيَّةٍ، تَجْرِي خَفِيَّةً تَحْتَ السَّطْحِ.

أَعْتَقِدُ أَنَّنَا نُدْرِكُ كَمُؤْمِنِينَ أَنَّ النَّظَرَةَ الْكِتَابِيَّةَ لِلْحُرِّيَّةِ تَتَعَارَضُ مَعَ كُلِّ الْأَفْكَارِ الْوَثْنِيَّةِ عَنِ الْحَتْمِيَّةِ، الَّتِي تَحْضُرُ تَأْثِيرَاتِ الْوَاقِعِ فِي الْمَجَالِ الطَّبِيعِيِّ، وَلَا مَجَالَ فِيهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ لِعَمَلِ اللَّهِ. وَالَّتِي تَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ الْكَائِنُ الْأَسْمَى بَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ، لَكِنْ بِالرَّغْمِ مِنْ سُمُوهِ، يَظَلُّ صَحِيحًا لِقُوَى الطَّبِيعَةِ الْعَمِيَاءِ، الَّتِي تَتَحَكَّمُ فِي مَصِيرِهِ.

لَكِنَّ السُّؤَالَ الْلَاهُوِيِّ الْأَهَمَّ الَّذِي نُوَاجِهُهُ دَاخِلَ دَائِرَةِ الْإِيمَانِ، هُوَ: مَا عِلَاقَةُ حُرِّيَّةِ إِرَادَتِنَا بِسِيَادَةِ اللَّهِ. فَكُلَّمَا خُضْتُ مُنَاقَشَاتٍ حَوْلَ الْمَفْهُومِ الْكِتَابِيِّ لِلتَّعْيِينِ الْمُسَبِّقِ - وَيَجِبُ أَنْ أَقُولَ إِنَّ هَذَا حَدَثَ مِرَارًا - وَكُلَّمَا سَنَحْتُ لِي فُرْصَةً شَرَحَ عَقِيدَةَ الْإِخْتِيَارِ أَوْ التَّعْيِينِ الْمُسَبِّقِ، يَكُونُ السُّؤَالَ الْحَتْمِيَّ الْأَوَّلَ الَّذِي يَطْرَحُهُ النَّاسُ رَدًّا عَلَى ذَلِكَ هُوَ: "وَمَاذَا عَنِ حُرِّيَّةِ الإرَادَةِ؟" لِأَنَّ نُدْرِكُ، حَتَّى إِنْ لَمْ نَكُنْ قَدْ دَرَسْنَا هَذِهِ الْأُمُورَ بِالتَّفْصِيلِ، الصُّعُوبَةَ الشَّدِيدَةَ لِلتَّوْفِيقِ بَيْنَ إِلَهِيَّةِ سِيَادَةِ مُطْلَقَةٍ، وَبَيْنَ مَخْلُوقِيَّةِ حُرِّيَّةِ حَقِيقِيَّةٍ.

نُوَاجِهُ ذَلِكَ لَيْسَ فَقَطْ مَعَ عَقِيدَةِ الْإِخْتِيَارِ وَالتَّعْيِينِ الْمُسَبِّقِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، بَلْ أَيْضًا فِي فَهْمِنَا لِلْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ، لِأَنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ عَلَّمَ مِرَارًا بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْتَفِ بِخَلْقِ هَذَا الْكُونِ، لَكِنَّهُ يَحْفَظُهُ بِقُدْرَتِهِ. وَهُوَ لَا يَكْتَفِي بِالْحِفَاطِ

عَلَى اسْتِمْرَارِيَّتِهِ، لِكَيْتَهُ يُدِيرُهُ، وَيُحْكُمُهُ. وَفِي مُمَارَسَتِهِ لِحُكْمِهِ لِحَلِيقَتِهِ، يَسْتُخْدِمُ سِيَادَتَهُ الْإِلَهِيَّةَ وَقُدْرَتَهُ. وَالكِتَابُ الْمُقَدَّسُ حَافِلٌ بِأَمْثَلِهِ لِقَوْلِ اللَّهِ بِأَنَّهُ يَرْفَعُ أُمَّامًا، وَيَضَعُ أُمَّامًا، وَبِأَنَّ الْأُمُورَ تَحْدُثُ وَفَقًا لِمَشُورَةِ اللَّهِ الْمَحْتُمَةِ. كَمَا نَقَرْنَا، مَثَلًا، أَنَّ أَجَلَ الْإِنْسَانِ مُعَيَّنٌ مِنَ الرَّبِّ، وَأَنَّ اللَّهَ يُصْدِرُ بَعْضَ الْأَحْكَامِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَتَحَقَّقَ.

إِذَنْ، نَقِفْ هُنَا أَمَامَ مَفْهُومِ تَعْيِينِ اللَّهِ الْمُسَبِّقِ بِكَامِلِهِ، أَيْ تَعْيِينِهِ لِلْأَحْدَاثِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ قَبْلَ حُدُوثِهَا. وَالسُّؤَالُ الْبَدِيهِيُّ الَّذِي يُطْرَحُ أَمَامَ مَفْهُومِ التَّعْيِينِ الْمُسَبِّقِ هُوَ: إِذَا كَانَ اللَّهُ يُعَيِّنُ الْيَوْمَ مَا سَيَحْدُثُ فِي الْعَدُوِّ، فَهَلْ هُنَاكَ أَدْنَى شَكٍّ فِي حُدُوثِ مَا عَيَّنَهُ؟ أَمْ أَنْتَا نَفْهَمُ التَّعْيِينَ الْمُسَبِّقَ فَقَطَّ بِمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ يُحَمِّنُ بِفِطْنَتِهِ مَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ سَيَحْدُثُ فِي الْعَدُوِّ؟ وَهَلْ يَعْرِفُ اللَّهُ مُسَبِّقًا مَا سَتَقُولُهُ قَبْلَ أَنْ تَقُولَهُ؟ وَإِذَا كَانَ يَعْرِفُهُ، أَلَا يَجْعَلُ سَابِقَ عِلْمِهِ مِنْ قَوْلِكَ لِمَا يَعْلَمُ أَنَّكَ سَتَقُولُهُ أَمْرًا أَكِيدًا، حَتَّى إِنْ ظَنَنْتَ أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُولَ كَلَامًا مُخْتَلِفًا عَمَّا يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّكَ سَتَقُولُهُ؟ وَهَلْ ظَنَنْتَ هَذَا هُوَ عَلَى أَفْضَلِ تَفْهِيمٍ وَهُمْ، لِأَنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ بِالْأَمْرِ تَجْعَلُهُ أَكِيدًا؟ لِهَذَا يُصَارِعُ اللَّاهُوتِيُّونَ لِفَهْمِ الْفُرُوقِ الدَّقِيقَةِ بَيْنَ صَرُورَةِ النَّتِيجَةِ الْمَنْطِيقِيَّةِ، وَصَرُورَةِ النَّتَائِجِ. فَإِذَا كَانَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَمْرًا مَا سَيَحْدُثُ مُسَبِّقًا، فَمِنْ الْمُوَكَّدِ تَمَامًا أَنَّهُ سَيَحْدُثُ، وَلَا يُمَكِّنُ إِلَّا يَحْدُثُ. لَكِنَّ هَلْ يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّهُ أَرَعَمَهُ عَلَى الْحُدُوثِ؟ وَهَلْ يَشْمَلُ سَابِقُ عِلْمِ اللَّهِ فِكْرَةَ تَعْيِينِهِ الْمُسَبِّقِ لِمَا سَيَحْدُثُ؟ هَذَا هُوَ الْجَانِبُ الصَّعْبُ مِنْ دِرَاسَةِ الْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَالسِّيَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ.

يَتَحَدَّثُ الْبَعْضُ أَحْيَانًا عَنِ مُشْكَلَةِ السِّيَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَكَأَنَّهَا تَنْطَوِي عَلَى تَنَاقُضٍ طَبِيعِيٍّ بَيْنَ سِيَادَةِ اللَّهِ وَحُرِّيَةِ الْإِنْسَانِ، أَوْ حُرِّيَةِ الْإِرَادَةِ. وَسَمِعْتُ عَنْ مُحَاوَلَاتٍ لِحَلِّ ذَلِكَ بِطَرِيقٍ مُخْتَلِفَةٍ، أَشْهَرُهَا اسْتِخْدَامُ تَشْبِيهِهِ الْخَطِّينِ الْمُتَوَازِيَيْنِ. أَحَدُ أَسَاتِدَتِي بِالْجَامِعَةِ، حِينَ تَعَرَّفْتُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ عَلَى هَذِهِ الْمُعْضَلَةِ، حَلَّهَا بِقَوْلِهِ إِنَّ حُرِّيَةَ الْإِنْسَانِ وَالسِّيَادَةَ الْإِلَهِيَّةَ خَطَّانِ مُتَوَازِيَانِ، يَلْتَقِيَانِ فِي الْأَبَدِيَّةِ، أَوْ فِي اللَّانِهَائِيَّةِ. فَكَلَّمَ خُصُورَ جِبَاهَهُمْ، وَاعْتَبَرُوا كَلَامَهُ عَمِيقًا لِلْعَايَةِ. وَأَتَذَكَّرُ أَيَّ حَرَجْتُ مِنَ الْفَضْلِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَنَا أَحُكُّ رَأْسِي قَائِلًا: "مَا خَطَبُ هَذَا التَّشْبِيهِ؟ لَوْ كَانَ هَذَا الْخَطَّانِ مُتَوَازِيَيْنِ حَقًّا، فَلَنْ يَلْتَقِيَا لَا فِي الْأَبَدِيَّةِ، وَلَا فِي بَيْتَسْبُرْج، وَلَا فِي أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ. وَفِعْلِيًّا، إِذَا التَّقِيَا فِي مَكَانٍ مَا، فَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّهُمَا فِعْلِيًّا غَيْرُ مُتَوَازِيَيْنِ. وَقَوْلُنَا ذَلِكَ هُوَ مُجَرَّدُ تَشْوِيْشٍ عَلَى صُعُوبَةِ الْمَسْأَلَةِ. فَإِنَّا فَقَطَّ نَقُولُ بِأَسْلُوبٍ مُنَمَّقٍ: "هَذَا الْمَفْهُومَانِ، فِي الْوَاقِعِ، مُتَنَاقِضَانِ. وَبِمَا أَنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ يُؤَكِّدُ مِنْ نَاحِيَةِ عَلَى السِّيَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَمِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى عَلَى حُرِّيَةِ الْإِنْسَانِ وَمَسْئُولِيَّتِهِ. وَمَعَ أَنَّ الْمَفْهُومَيْنِ مُتَنَاقِضَانِ وَمُتَعَارِضَانِ، نَحْنُ مُرْعَمُونَ بِدَافِعِ التَّقْوَى عَلَى قُبُولِ التَّقْيِضَيْنِ". وَيَجِبُ أَنْ أَقُولَ بِصَرَاحَةٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْأَسْلُوبُ الَّذِي يَتَعَامَلُ بِهِ مُعْظَمُ الْمَسِيحِيِّينَ مَعَ الْمُسْكَلَةِ. فَهُمْ لَا يُخْشَوْنَ الْبَتَّةَ مِنْ قُبُولِ هَذَا التَّنَاقُضِ، الَّذِي يَعْنِي عَدَمَ الصَّوَابِ. وَأَقُولُ إِنَّكُمْ إِنْ فَهَمْتُمْ حُرِّيَةَ الْإِنْسَانِ عَلَى أَنَّهَا مُتَنَاقِضَةٌ تَمَامًا مَعَ السِّيَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ، أَوْ إِنْ فَهَمْتُمْ السِّيَادَةَ الْإِلَهِيَّةَ عَلَى أَنَّهَا مُتَنَاقِضَةٌ تَمَامًا مَعَ حُرِّيَةِ الْإِنْسَانِ، فَلَا بُدَّ أَنْ أَفَرِّضَ أَنَّ مَفْهُومًا وَاحِدًا عَلَى الْأَقْلَ مِنَ الْمَفْهُومَيْنِ - أَوْ رُبَّمَا كِلَيْهِمَا، لَكِنَّ أَحَدَهُمَا عَلَى الْأَقْلَ - غَيْرُ صَاحِحٍ، وَيَلْزَمُ تَعْدِيلُهُ وَمُرَاجَعَتُهُ.

أودُّ أن أقولُ بدايةً إنَّ مفهومَي حُرِّيَةِ الإنسانِ وَالسِّيَادَةِ الإِلَهِيَّةِ لَيْسَا مُتَنَاقِضَيْنِ فِي طَبِيعَتِهِمَا. رُبَّمَا هُنَاكَ الكَثِيرُ مِنَ الغُمُوضِ الَّذِي يَلْفُ العِلَاقَةَ بَيْنَهُمَا، لَكِنَّهُمَا عَبرُ مُتَنَاقِضَيْنِ فِي طَبِيعَتِهِمَا. دَعُونِي أُخْبِرُكُمْ بِأَنَّ التَّنَاقُضَ يَكُونُ فِي هَذَيْنِ المَفْهُومَيْنِ: السِّيَادَةُ وَالِاسْتِقْلَالُ الدَّائِي. فَإِذَا كُنَّا نَقْصِدُ بِالْحُرِّيَّةِ الحُرِّيَّةَ المُطْلَقَةَ، أَوْ مَا نُسَمِّيهِ بِالِاسْتِقْلَالِ الدَّائِي، حَيْثُ يَحْكُمُ البَشَرُ أَنفُسَهُمْ، وَلَا يُمكنُ لِأَيِّ سُلْطَةٍ أَوْ قُوَّةٍ شَامِلَةٍ وَالزَّامِيَّةِ أَنْ تَمْنَعَهُمْ مِنْ تَنْفِيذِ أَيِّ قَرَارٍ يَتَّخِذُونَهُ. فَإِذَا كُنَّا نَقْصِدُ بِالْحُرِّيَّةِ الحُرِّيَّةَ المُطْلَقَةَ أَوْ الِاسْتِقْلَالِ الدَّائِي، فَمِنْ المُسْتَحِيلِ تَمَامًا أَنْ نَنْجَحَ فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَ هَذَيْنِ المَفْهُومَيْنِ. فَإِذَا كَانَ اللهُ ذَا سِيَادَةٍ، بِمَعْنَى أَنَّ حُرِّيَّتَهُ مُطْلَقَةً، وَكَشَمَلِ خَلِيقَتِهِ كُلِّهَا، بِحَيْثُ يَتَمَتَّعُ بِالقُوَّةِ وَالقُدْرَةِ عَلَى أَنْ يَخْتَارَ مَا يَشَاءُ؛ إِذَا كَانَ اللهُ ذَا سِيَادَةٍ، فَلَا يُمكنُ لِأَيِّ مَخْلُوقٍ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقِلًّا، لِأَنَّ اسْتِقْلَالَه مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَحْكُمُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، وَهَذَا يَسْتَبْعِدُ إِمكانِيَّةَ تَسَلُّطِ أَيِّ شَيْءٍ أَوْ أَيِّ شَخْصٍ عَلَيْهِ.

إِذَنْ، لَا يُمكنُ لِهَذَيْنِ المَفْهُومَيْنِ أَنْ يُوْجِدا مَعًا. فَإِذَا كَانَ اللهُ ذَا سِيَادَةٍ، لَا يُمكنُ أَنْ نَكُونَ مُسْتَقِلِّينَ. وَفِي المُقَابِلِ، لَوْ كُنَّا مُسْتَقِلِّينَ، فَهَذَا يُلْغِي سِيَادَةَ اللهِ. فَلَا يُمكنُ لِلْفِكْرَتَيْنِ أَنْ تُوجِدا مَعًا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ. يُمكنُنَا تَصَوُّرُ اسْتِقْلَالِيَّةِ الإنسانِ، وَيُمكنُنَا تَصَوُّرُ السِّيَادَةِ الإِلَهِيَّةِ، لَكِنْ لَا يُمكنُنَا تَصَوُّرُ وُجُودِهِمَا مَعًا.

هَذَا شَبِيهُ نَوْعًا مَا بِالْقِصَّةِ القَدِيمَةِ عَنِ القُوَّةِ الَّتِي لَا تُقَاوَمُ وَالشَّيْءِ الَّذِي لَا يُمكنُ تَحْرِيكُهُ. نُذْرِكُ أَنَّ وُجُودَ قُوَّةٍ لَا تُقَاوَمُ هُوَ مَفْهُومٌ وَارِدٌ. فَيُمكنُنَا تَخْيُّلُ وُجُودِ شَيْءٍ يَتَمَتَّعُ بِقُوَّةٍ جَبَّارَةٍ لِدَرْجَةٍ أَنْ لَا شَيْءٌ يَسْتَطِيعُ مُقَاوَمَتَهُ. مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، يُمكنُنَا تَصَوُّرُ وُجُودِ شَيْءٍ قَوِيٍّ لِدَرْجَةٍ أَنْ لَا شَيْءٌ يَسْتَطِيعُ تَحْرِيكُهُ، وَلِهَذَا نُسَمِّيهِ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَا يُمكنُ تَحْرِيكُهُ. وَمَعَ أَنَّ المَفْهُومَيْنِ، كُلًّا عَلَى حِدَةٍ، مَعْقُولَانِ، مِنْ المُسْتَحِيلِ أَنْ يُوْجِدا مَعًا. نَعْرِفُ ذَلِكَ، إِذْ لَمْ يَكُنْ مِنْ خِلَالِ الفَلَسَفَةِ، فَسَيَكُونُ مِنْ خِلَالِ الأُغْنِيَةِ الَّتِي اشْتَهَرَتْ فِي مُنْتَصَفِ هَذَا القَرْنِ، الَّتِي تَقُولُ: "عِنْدَمَا تَلْتَمِصُ قُوَّةٌ لَا تُقَاوَمُ مِثْلَكَ بِشَيْءٍ لَا يُمكنُ تَحْرِيكُهُ مِثْلِي، فِطْرِيَّةً مَا، وَعِنْدَ نُقْطَةٍ مَا، عَلَى أَحَدِهِمَا الِاسْتِسْلَامُ". أَتَذْكُرُونَ ذَلِكَ؟ عَلَى أَحَدِهِمَا الِاسْتِسْلَامُ. فَإِنَّ تَخْيُّلَنَا التِّقَاءَ القُوَّةِ الَّتِي لَا تُقَاوَمُ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَا يُمكنُ تَحْرِيكُهُ. فَإِنَّ اصْطِدْمَتِ القُوَّةِ الَّتِي لَا تُقَاوَمُ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَا يُمكنُ تَحْرِيكُهُ، وَلَمْ تَحْرُكْهُ، عَلَامٌ سَيَدُلُّ ذَلِكَ؟ عَلَى أَنَّ القُوَّةَ الَّتِي لَا تُقَاوَمُ لَمْ تَكُنْ قُوَّةً لَا تُقَاوَمُ، بَلْ أَمَكَنَ مُقَاوَمَتَهَا. وَفِي المُقَابِلِ، إِذَا اصْطِدْمَتِ القُوَّةُ الَّتِي لَا تُقَاوَمُ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَا يُمكنُ تَحْرِيكُهُ، فَتَحْرُكُ هَذَا الشَّيْءَ، سَيَلْزَمُ أَنْ نُغَيِّرَ لِقَبَهُ، لِأَنَّهُ أَصْبَحَ الآنَ قَابِلًا لِلتَّحْرِيكِ، وَلَيْسَ عَبرَ قَابِلٍ لِلتَّحْرِيكِ. فَلَا يُمكنُ لِلأَثْنَيْنِ أَنْ يَجْتَمِعَا مَعًا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ.

لَكِنْ مِنْ الأُمُورِ الَّتِي نُلَاحِظُهَا فِي النُّظْرَةِ الكِتَابِيَّةِ لِهَذِهِ المَسْأَلَةِ هُوَ أَنَّ الكِتَابَ المُقَدَّسَ لَا يُعَلِّمُ البِتَّةَ، أَوْ حَتَّى يُلَمِّحُ، إِلَى أَنَّ الحُرِّيَّةَ الَّتِي نَتَمَتَّعُ بِهَا تَصِلُ إِلَى مُسْتَوَى الِاسْتِقْلَالِ الدَّائِي. وَفِي الوَاقِعِ، وَطَوَالَ قُرُونٍ، طَلَّ اللّاهُوتِيُّونَ يَقُولُونَ إِنَّ الحُطْبِيَّةَ الكُبْرَى لِأَدَمَ وَحَوَاءَ فِي الجَنَّةِ هِيَ سَعِيهُمَا إِلَى الِاسْتِقْلَالِ. وَتَمَثَّلَتْ تَجْرِبَةُ الحَيَّةِ لهُمَا فِي الجَنَّةِ فِي أَنَّ

يَكُونَا كَاللَّهِ. فَقَدْ أَرَادَا حُرِّيَّةَ تَفُوقِ تِلْكَ الَّتِي أَعْطَاهَا اللَّهُ لَهُمَا. أَعْطَى اللَّهُ مَخْلُوقَاتِهِ حُرِّيَّةً - وَهِيَ حُرِّيَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ، وَبَعِيدَةٌ الْمَدَى. فَقَدْ قَالَ: "مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلًا". لَكِنَّ تِلْكَ الْحُرِّيَّةَ لَمْ تَكُنْ مُطْلَقَةً، بَلْ وَضَعَ اللَّهُ قَيْدًا عَلَيْهَا، وَأَخْضَعَهَا لِسَيَادَتِهِ، فَقَالَ: "أَمَّا هَذِهِ الشَّجَرَةُ، فَلَا تَأْكُلْ مِنْهَا، لِأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ". وَكَانَتِ الْخَطِيئَةُ هِيَ نِتَاجُ مَحَاوَلَةِ الْإِنْسَانِ التَّوَسُّعِ مِنْ نِطَاقِ حُرِّيَّتِهِ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ خَالِقِهِ.

سَمِعْتُ كَثِيرًا - بَلْ وَأَكْثَرَ مِنَ اللَّازِمِ، فَبِالِنِسْبَةِ إِلَيَّ، مَرَّةً وَاحِدَةً هِيَ أَكْثَرُ مِنَ اللَّازِمِ. سَمِعْتُ الْبَعْضَ فِي الْمُجْتَمَعِ الْمَسِيحِيِّ يَقُولُ إِنَّ هُنَاكَ حَدًّا لِسَيَادَةِ اللَّهِ، وَإِنَّ اللَّهَ مُتَسَلِّطٌ إِلَى حَدِّ مُعَيَّنٍ، وَإِنَّ مَا يَحُدُّ سَيَادَةَ اللَّهِ هُوَ حُرِّيَّةُ الْإِنْسَانِ. فَسَيَادَةُ اللَّهِ مُحَدُودَةٌ بِحُرِّيَّةِ الْإِنْسَانِ. مَا خَطْبُ هَذَا الرَّأْيِ؟ لَوْ كَانَتْ سَيَادَةُ اللَّهِ مُحَدُودَةً بِحُرِّيَّتِكَ، فَمَنْ سَتَكُونُ لَهُ السِّيَادَةُ؟ فَلَوْ كَانَتْ لِحُرِّيَّتِكَ الْقُدْرَةُ عَلَى الْحَدِّ مِنْ سَيَادَةِ اللَّهِ، سَتَكُونُ أَنْتَ السَّيِّدَ وَلَيْسَ اللَّهُ. كَلَّا، كَلَّا، بَلْ يَقُولُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ الْعَكْسَ تَمَامًا، بِأَنَّ حُرِّيَّةَ الْإِنْسَانِ حَقِيقِيَّةٌ، لَكِنَّهَا مُحَدُودَةٌ دَائِمًا بِحُرِّيَّةِ اللَّهِ الْأَكْبَرِ. فَاللَّهُ حُرٌّ، وَأَنْتَ حُرٌّ، لَكِنَّهُ أَكْثَرُ حُرِّيَّةً مِنْكَ. وَكَلَّمَا أَرَادَتْ حُرِّيَّةُ إِرَادَتِكَ فِعْلَ أَمْرٍ لَا تُرِيدُ حُرِّيَّةُ إِرَادَةِ اللَّهِ أَنْ تَفْعَلَهُ، يَخْدُ نِزَاعٌ، وَتَكُونُ أَنْتَ الْخَاسِرَ. سَتَقُولُ لِي: "حَسَنًا، وَمَاذَا عَنِ ارْتِكَابِي لِلْخَطِيئَةِ؟" اللَّهُ يَسْمَحُ لَكَ بِأَنْ تُخْطِئَ. فَهُوَ يَسْمَحُ بِذَلِكَ. لَكِنَّهُ لَا يُوَافِقُ عَلَيْهِ. وَحَتَّى مِنْ جِهَةِ ذَلِكَ، لَنْ يَسْعَكَ أَنْ تُخْطِئَ مَا لَمْ يُخْطِرِ اللَّهُ، فِي سَيَادَتِهِ، أَنْ يَدَعَكَ تُخْطِئَ. هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّهُ يُرْغِمُكَ عَلَى أَنْ تُخْطِئَ. وَلَا يَعْنِي أَنَّهُ يُبَارِكُ شَرَّكَ. لَكِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقِفَ فِي وَجْهِكَ وَيَقُولَ: "مَعَ أَنَّ لَدَيَّ الْقُدْرَةَ أَنْ أَمْنَعَكَ، وَأَنْ أُبِيدَكَ بِكَلِمَتِي، وَأَمْنَعَكَ مِنْ فِعْلِ أَيِّ شَيْءٍ تُحْطِطُ لَهُ، مَعَ أَنَّي أَعْلَمُ مَا تُحْطِطُ لَهُ، وَأَسْتَطِيعُ مَنَعَهُ فِي الْحَالِ، لَكِنَّنِي سَأَسْمَحُ بِجُدُوئِهِ، لِأَنَّ لَدَيَّ أَسْبَابِي".

يَتَعَلَّقُ هَذَا بِمَفْهُومِ حُكْمِ اللَّهِ لِلْعَالَمِ بِعِنَايَتِهِ. رَأَيْنَا ذَلِكَ فِي سِلْسِلَةِ الْمَحَاضِرَاتِ عَنِ عِنَايَةِ اللَّهِ، حِينَ تَحَدَّثْنَا عَنِ مَفْهُومِ التَّوَافِقِ، الَّذِي بِمُوجِبِهِ يُمَارِسُ اللَّهُ سَيَادَتَهُ فِي هَذَا الْعَالَمِ. فَاللَّهُ يُمَارِسُ حُرِّيَّتَهُ الْمُطْلَقَةَ فِي، وَمِنْ خِلَالِ، وَبِوَاسِطَةِ، الْقَرَارَاتِ الْحَقِيقِيَّةِ لِمَخْلُوقَاتِهِ.

وَأَوْضَحَ نَصٌّ يُبَيِّنُ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي يَرِدُ فِي خِتَامِ سَفْرِ التَّكْوِينِ، عِنْدَمَا اجْتَمَعَ شَمْلُ يُوسُفَ بِإِخْوَتِهِ. فَبَعْدَمَا عَرَفَهُمْ يُوسُفُ، وَعَرَفَهُ إِخْوَتُهُ، ارْتَعَبُوا مِنْ أَنْ يَنْفَذَ فِيهِمُ الْإِنْتِقَامَ الْعَادِلَ الَّذِي كَانَ مِنْ حَقِّهِ تَمَامًا بِسَبَبِ عَدْرِهِمْ بِهِ. وَارْتَعَدُوا أَمَامَ سُلْطَتِهِ الْأَرْضِيَّةِ. أَتَذْكُرُونَ كَلِمَاتِ يُوسُفَ لِإِخْوَتِهِ؟ قَالَ: "أَنْتُمْ قَصَدْتُمْ لِي شَرًّا، أَمَّا اللَّهُ فَقَصَدَ بِهِ خَيْرًا". يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ الصَّالِحَةَ تَحَقَّقَتْ فِي، وَمِنْ خِلَالِ، نَوَايَا إِخْوَةِ يُوسُفَ الشَّرِّيرَةِ. لَكِنَّ، هَلْ يُمَكِّنُهُمْ بِهِذَا الْمُثُولُ أَمَامَ كُرْسِيِّ الدِّيُونَةِ قَائِلِينَ: "يَا رَبُّ، كُنَّا فَقَطْ نَتَمُّ مَشِيئَتَكَ. نَحْنُ أَبْرِيَاءُ. فَقَدْ قَصَدْتَ بِالْأَمْرِ خَيْرًا، وَهَذَا مَا قَصَدْنَا أَيْضًا؟" كَلَّا، كَلَّا. بَلْ سَيَقُولُ اللَّهُ: "أَنْتُمْ تَصَرَّفْتُمْ بِحَسَبِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي حَصَلْتُمْ عَلَيْهَا، وَبِحَسَبِ رَغْبَاتِكُمْ،

وَبِحَسَبِ قَرَارَاتِكُمْ، الَّتِي كَانَتْ قَرَارَاتٍ حَقِيقِيَّةً وَفِعْلِيَّةً. لَمْ يُرْغَمُهُمُ اللَّهُ عَلَى فِعْلِ مَا فَعَلُوهُ، لَكِنَّهُ اسْتَخْدَمَ قَرَارَاتِهِمْ لِتَثْمِيمِ قَصْدِهِ.

هَكَذَا يَهُودًا أَيْضًا، الَّذِي أَدَّى غَدْرُهُ وَخِيَانَتُهُ إِلَى صَلْبِ الْمَسِيحِ. قَصَدَ يَهُودًا بِالْأَمْرِ شَرًّا، لَكِنْ دُونَ قَرَارِهِ الشَّرِّيرِ، لَمَّا وَقَعَ أَعْظَمُ حَدَثٍ فِدَائِيٍّ. هَذَا هُوَ لُغْزُ الْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَكَيْفِيَّةُ تَثْمِيمِ اللَّهِ لِمَشِيئَتِهِ مِنْ خِلَالِ الْقَرَارَاتِ الْبَشَرِيَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ.

فِي عِلْمِ اللَّاهُوتِ، كَمَا ذَكَرْتُ، نَضْطِدُّمُ بِالنَّصِّ الْقَائِلِ: "أَنْتُمْ قَصَدْتُمْ لِي شَرًّا، أَمَّا اللَّهُ فَقَصَدَ بِهِ خَيْرًا". وَعِنْدَمَا نُحَلِّلُ مَا يَجْرِي فِي قَرَارَاتِنَا الْأَخْلَاقِيَّةِ -أَيُّ مَا نُسَمِّيهِ "قُوَّةَ الْإِرَادَةِ"- مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي نَفْهَمُهَا، وَالَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالْمَسْئُولِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، هُوَ "التَّعَمُّدُ". نَتَحَدَّثُ عَنِ الْحَوَادِثِ، كَمَا حِينَ تَضْطِدُّمُ سَيَّارَتُنَا بِمَوْخَرَةٍ سَيَّارَةِ شَخْصٍ آخَرَ، فَتَخْرُجُ سَرِيعًا، وَنَعْتَذِرُ لِهَذَا الشَّخْصِ قَائِلِينَ: "أَعْتَذِرُ. لَمْ...، مَاذَا؟" لَمْ أَقْصِدْ ذَلِكَ. لَمْ أَضْطِدُّمُ بِكَ عَمْدًا، كَانَ ذَلِكَ حَادِثًا. فَلَمْ يَكُنْ هَذَا مُتَعَمَّدًا، أَوْ كَانَ مُتَعَمَّدًا، لَمَّا افْتَصَرَ ذَنْبِي عَلَى إِتْلَافِ سَيَّارَةِ جَارِي، بَلْ سَيْلَفِي الْقَبْضِ عَلَيَّ بِتُهْمَةِ الشَّرُوعِ فِي الْقَتْلِ، إِذَا كُنْتُ قَدْ تَعَمَّدْتُ الْإِضْطِدَامَ بِسَيَّارَتِهِ.

إِذَنْ، نَحْنُ نَفْهَمُ الدَّلَالََةَ الْأَخْلَاقِيَّةَ لِلتَّعَمُّدِ. وَيَقُولُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ عَنِ أَفْعَالِ الْبَشَرِ وَقَرَارَاتِهِمْ إِنَّهُمْ يَتَصَرَّفُونَ فِي تَعَمُّدٍ حَقِيقِيٍّ. لَكِنْ أَفْعَالُنَا الْمُتَعَمَّدَةَ نَفْسَهَا خَاضِعَةٌ لِسُلْطَانِ اللَّهِ الْمُطْلَقِ، لِأَنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ يُجِبُّنَا بِأَنَّنا بِاللَّهِ نَحْيًا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ. رُبَّمَا تَكُونُ نِيَّتِي سَيِّئَةً، وَرُبَّمَا أَتَّخِذُ قَرَارًا خَاطِئًا، أَوْ أَقُومُ بِفِعْلِ شَرِّيرٍ. وَعِنْدَيْدِي، فَإِنِّي أَتَصَرَّفُ بِإِعْتِبَارِي مُسَبَّبًا حَقِيقِيًّا، أَيْ بِإِعْتِبَارِي سَبَبًا يُحْدِثُ نَتِيجَةً. وَنَقُولُ فِي عِلْمِ اللَّاهُوتِ إِنَّنا كَائِنَاتٌ مُسَبَّبَةٌ حَقِيقِيَّةٌ، لَكِنَّا عَلَى أَقْصَى تَقْدِيرٍ كَائِنَاتٌ مُسَبَّبَةٌ ثَانَوِيَّةٌ، لِأَنَّنا لَا نَتَمَتَّعُ بِأَيَّةِ قُدْرَةٍ سِوَى تِلْكَ الَّتِي نَسْتَمِدُّهَا مِنْ ذَاكَ الَّذِي بِهِ نَحْيًا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ. إِذَنْ، حَتَّى فِي خَطِيئَتِي، يَظُلُّ اللَّهُ ذَا سِيَادَةٍ. لَكِنَّ تِلْكَ السِّيَادَةَ لَا تُرْغِمُنِي عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ، أَوْ تَلْتَمِسُ لِي الْعُذْرَ مِنْ جِهَةِ أَفْعَالِي.

الدكتور آر. سي. سبرول هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة سانفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Chapel Bible College). وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهشني الألم".